النهار
٢٠٠٠/٤/٧

المجتهد الاكبر

ثمة انباء تأتيك احيانا من حيث لا تدري، فتربكك للحظة ثم ما تلبث ان تشحن المخيلة بألف صورة وصورة. وفاة الحبيب بورقيبة يوم امس هي من هذه الانباء. قبل خمسة عشر عاما، كان مثل هذا الخبر ليهز قطاعات واسعة من العالم، لما اثاره الزعيم التونسي من جدل طوال حياته السياسية ولما تمثله بلاده من اهمية استراتيجية في قلب المتوسط، فضلا عن وزنه ووزنها في وجدان عدد من الشعوب العربية والافريقية. اما الان، فيكاد يكون الخبر خارج تونس عاديا عرضيا، يأتي من لا مكان وينتهي بدقيقة صمت، ولا يحرك الا تداعيات الذاكرة واسئلة التاريخ. ولكن اي تداعيات او اي اسئلة! ولعل اول هذه الاسئلة عما نحفظه من تاريخنا، اذ يكفي ان يغيب زعيم عن حاضر السياسة حتى ننسى انه كان من كبارنا، وان سقط فاسقطوه.

كبير، الحبيب بورقيبة؟ ولا ريب، مهما اختلفت الاراء في تقويم تجربته، او لنقل تجاربه. كبير في انجازاته وكبير في انحرافاته كذلك وليس فقط لأنه سمّي (او سمّى نفسه) "المجاهد الاكبر". اصلا، لم يكن اللقب منتحلا، وان تم استخدامه لاحقا لاغراض اقل ترفعا بكثير من الاسباب التي جعلته يستحقه. فاذا كان اسم الحبيب بورقيبة يعني شيئا لاجيال من العرب والافارقة، فلأن حامله تحوّل، بدخوله تونس الحرة على صهوة جواد ابيض قبل اربع واربعين عاما، احد ابرز رموز حركة نزع الاستعمار.

واذا كان لم يسع بعد ذلك الى تصدير "بورقيبية" ما الى دول اخرى، فذلك عائد على الارجح الى صغر بلده وليس في اي حال من الاحوال الى افتقاره الى مقومات المشروع القابل للتعميم. اول هذه المقومات كان الركون الى تقدير دقيق للاوزان الدولية، كما تجلى ذلك في ادارته للنضال الوطني التونسي ضد الاستعمار الفرنسي، ولاسيما خلال الحرب العالمية الثانية، حين رفض بورقيبة التحالف مع ايطاليا موسوليني سعياً الى الالتفاف على الدولة المستعمرة، رغم كل ما قيل عن استلهامه بعض التحديث الفاشي مخففاً (جدا).

وكان من نتيجة ترويه في قراءة السياسة الدولية وموازين القوى المتحكمة بها ان جلب له تعاطف محاوريه الفرنسيين، سواء ادغار فور او بيار منديس فرانس، وأمّن له دعم "لوبي" فرنسي يحمي تجربته دون ان يضطر الى ان يشتري هذا الدعم كما فعل الحسن الثاني ابن رفيق نضاله محمد الخامس. بيد ان دور بورقيبة في التاريخ العربي تعدى انجاز التحرير، اذ كان الزعيم التونسي مثالا على اتاتوركية من اصل مدني، اي رمز سياسة تحديثية وسلطوية في آن واحد".

مع الاشارة الى انه حتى في انحرافاته السلطوية لم يصل الى ما عاناه المشرق العربي قبل ان تختبره تونس نفسها في عهد الابن المرتد زين العابدين بن علي، هذا الجنرال الذي، كسائر اقرانه في الجمهوريات الملكية العربية، لم يخض حرباً ولا ظفر بتحرير.

واذا كانت سلطوية بورقيبة وحصر محاولاته التجديدية في اطار "ثورة من فوق" فحسب قد أدت في تونس نفسها الى عكس ما رمت اليه، مع انبعاث للتيارات السلفية، فان الاسئلة الكبيرة التي طرحها على المجتمعات العربية تبقى بكل قوتها والحاحها ولعل الوقت حان رغم ما آلت اليه العلمانية بين المسلمين (ولا تناقض بين الكلمتين)، للقول ان ما فعله بورقيبة في اجتهاده، النهضوي

النهار
٢٠٠٠/٤/٧

كان انتصارا للاسلام. وليس تعدياً عليه. فالجهد الاستثنائي الذي صبه بورقيبة في رفع الحرمان عن المرأة التونسية سيبقى من مآثر السياسة الاسلامية في القرن العشرين. حتى محاولته اخضاع ممارسة بعض الفرائض (كالصوم) لشروط الحياة العصرية وضرورات الاستنهاض الاقتصادي لا يمكن النظر اليها انها تحد للاسلام، وان بدت اليوم لكثير من المسلمين غير مقبولة.

وفي اي حال، لن يصح الربط الذي قد يقيمه بعض المعلقين اليوم بين التوجه التحديثي لبورقيبة وخياراته في السياسة الخارجية. فعبد الناصر لم يكن اقل تحديثية، رغم سلوكه خطاً مغايراً في المسائل الدولية والاقليمية. واذا كان موت بورقيبة مناسبة عند البعض للتذكير بما نسب اليه من "انهزامية" حيال اسرائيل، بعد اقتراحه عام ١٩٦٤ قبول العرب قرار تقسيم فلسطين، فإن هذا الموقف لا يمت بصلة الى الخيار التحديثي في الشؤون المجتمعية. في المقابل، قد يجد بعض آخر في الحدث مناسبة لترداد معزوفة "آه لو قبل العرب..." الدارجة في زمن التهافت. ولأن المديح المتوجب للمتوفي، والمستحق في الكثير من الجوانب، قد ينسحب غداً على كل ما قام به او قاله، فقد يكون مناسباً استخلاص عبرة مسبقة. كلا، لم يكن ممكناً القبول بقرار التقسيم لا عند صدوره عام ١٩٤٧ ولا عندما اقترح ذلك بورقيبة عام ١٩٦٤.

الا انه لا يمكن ايضاً الابقاء على النهج التخويني الذي طاول بورقيبة آنذاك. فقد آن الاوان لأن نعلن انتماءنا الى كامل تاريخنا، الى عبد الناصر كما الى بورقيبة، وخصوصاً عندما نكون بحاجة الى الاثنين معاً. فإذا كانت سياسة "خذ وطالب" في غير محلها في الستينات، فقد صارت اليوم، ويا للاسف، ضرورة لا مفر منها. وكم نحن بحاجة الى من يعرف ان ينظم ايقاعها في تواصل مع المجتمع، كما فعل بورقيبة وكما فعل عبد الناصر ايضاً. اي سر ذلك الذي يدفعنا الى استحضار عبد الناصر عندما يغيب بورقيبة؟

قطعاً ليس الاقتناع بأن الاثنين كانا على نقيض. فهما يترافقان في صفحة التاريخ اكثر مما يصطدمان. ام تراه الحنين الى نمط من الاحتفالية الجماهيرية التي تحمل شيئاً من الصدق تشارك في انتهاجها الريّس المصري والمجاهد الاكبر؟ فمن ذا الذي سيفكر اليوم، كما بورقيبة عشية العودة الى تونس الحرة، بالتدرب على ركوب الخيل اسابيع حتى يدخل عاصمته دخول المحررين؟ حتى ان فعل احدهم من جنرالات الجمهوريات الملكية، فهل سنستطيع كبت قهقهتنا هذه المرة؟ فعندما يعيد التاريخ نفسه، تكون المرة الثانية ملهاة. كبير، الحبيب بورقيبة؟ اقله لأن التاريخ معه لم يكن لهواً ولا تلهياً.

سمير قصير

النهار
٢٠٠٠/٤/٧

Id-Reference	**00-Pr-000399**	
Media	**(Support)**	HC
Title		المجتهد الاكبر
Subtitle		
Section		
Language		عربي
Source		النهار
Page		١ تتمة ١١ 1 + 11
Date		٢٠٠٠/٤/٧ 07/04/2000
Author		سمير قصير
Co-Author		
Keywords		
	Persons	حبيب.بورقيبة – جمال.عبد.ناصر – موسوليني – ادغار.فور – بيار.منديس.فرانس – زين.عابدين.بن.علي
	Locations	تونس – فرنسا
	Dates	١٩٦٤ – ١٩٤٧ – ١٩٦٤
	Themes	حبيب.بورقيبة – تونس – سياسة – اسلام – علمانية – فرنسا – فلسطين – مجاهد.أكبر – استعمار.فرنسي – اسرائيل – نضال.تونسي – سياسة.إسلامية – تاريخ.عربي – تيارات.سلفية – عرب – جمال.عبد.ناصر
Subject		